التربية الروحية عند بديع الزمان النورسي

الأستاذ بلحاجي عبد الصمد

جامعة تلمسان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد؛

فلقد قالوا:"كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له ثم أصبح اليوم اسما لا مسمى له".

إن هذا المقولة صحيحة إلى حدٍّ ما؛ فالمسلمون في صدر الإسلام كان همهم الأول تزكية النفس الأمارة بالسوء والسمو بها في مدارج التربية الروحية دون أن يبدعوا لذلك مصطلحا خاصا إدراكا منهم أن تزكية النفس وتربيتها هي العمود الفقري في منهاج السلوك إلى مرضاة الله تعالى، ولعل رجال "الرسالة القشيرية" من أبرز من يمثلون هذا العهد.

ثم خلف من بعد الرعيل الأول أناس أفردوا لهذا المنهج السلوكي اسما جديدا لا عهد لمن قبلهم به وأوْلَوه اهتماما بالغا حتى غدا أشبه بقبَّة ليس بداخلها مَزار، ولقد امتد هذا العهد إلى عصرنا الذي نحن فيه وأصبح التعامل اليوم إنما هو مع بريق هذه الكلمة وما يشعُّ منها من مظاهر الصلاح والتقوى؛ وهكذا غدا التصوف اسما لا مسمى له.

غير أنه من المعلوم أن ما من عموم إلا ويلحقه استثناء فلا يزال في المتصوفة من هم على سَنَن الرعيل الأول، والمتتبع لسيرة بديع الزمان النورسي يجده مظهرا لحال الرعيل الأول ومظهرا لهذا الاستثناء.

نحاول في هذه الورقة أن نتطرق لزوايا من سيرة هذا العلَم الشامخ وطلبه للعلم ومنهجه في تسليك نفسه والعروج بها في مدارج السالكين.

***المولد والنشأة:**

ولد سعيد النورسي في قرية نورس الواقعة شرقي الأناضول في تركيا عام 1877م من أبوين صالحين كانا مضرب المثل في التقوى والورع والصلاح؛ فأبوه واسمه ميرزا اشتهر باسم الصوفي ميرزا وذلك لما كان عليه من تقوى وورع حيث إنه كان يربط أفواه ماشيته بالكمامات كلما كان عائدا بها من المراعي حتى لا تقضم من حقول الناس ولا قضمة واحدة؛ تحريا لخلوص ألبانها ولحومها وأثمانها من شوائب الحرام.

أما أمه فاسمها نورية وكانت صالحة أيضا ويروي عنها ابنها سعيد أنها ما أرضعته قط إلا على وضوء ولا حملته على ذراعيها إلا بذكر وقرآن ولا أرقدته إلا بدعاء وإن فارقته فإلى تبتل وقيام.

فقد والدته في التاسعة من عمره وأخواته الثلاث في الخامسة عشر من عمره ولم يبق له إلا أخ واحد اسمه الملا عبد الله.

***طلبه للعلم:**

كان تعلمه للعلم عجبا فعلى إثر رؤيا رآها حيث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فسأله العلم فالتفت إليه مبشرا وقال:" سيوهب لك علم القرآن مالم تسأل أحدا".

فجَّرت هذه الرؤيا شوقا عظيما في قلبه إلى طلب العلم فكان يكفيه أن ينظر في الكتاب الواحد نظرات حتى ينطبع كل محتواه في قلبه انطباعا، وقد أكمل قراءة ما يقرب من خمسين كتابا خلال ثلاثة أشهر واستوعبها وأجيز فيها حيث كان يقرأ في هذه الشهور الثلاثة يوميا ما يقارب مائتي صفحة أو يزيد؛ أي بمعدل متن كامل في اليوم من متون أمهات الكتب مثل جمع الجوامع للسبكيوشرح المواقف للعضد الإيجي وتحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيثمي ونحو ذلك كثير.

ولقد كان في غنى عن شرح شارح أو إعانة معلِّم، ومعلوم أن هذه المتون فيها من الألغاز ما يحار شيوخ الوقت في حل معضلاته وشرح إشكالاته وكان يقول:" بمجرد أن أشرع في النظر في الكتاب حتى تنتقل صفحاته إلى قلبي سطرا سطرا وكان الفهم لحقائقه أسبق إلى قلبي من رسومه".

ووصل به الحال إلى حد أنه ما سئل عن أي سؤال في أي علم من العلوم إلا وأجاب عنه إجابة شافية.

كما عكف على دراسة العلوم العصرية فالتهم ما اعترض طريقه من تاريخ وجغرافيا ورياضيات وجيولوجيا وفيزياء وكيمياء وفلسفة حتى اكتمل له منها أسس كلية وتصورات شاملة، وكانت لهذه العلوم الحديثة التي طالعها دورا أن فتحت له آفاق الولوج إلى عالم العصر الجديد لكن عبر بوابة القرآن الكبرى.

كل هذا الجد والمثابرة في طلب العلم وتحصيله لأنه كان يرى أن لا خروج من الأزمة التي مرت الأمة الإسلامية بها أواخر القرن الماضي بغير التربية والتعليم، لا خروج بغير دار الأرقم بن أبي الأرقم، لا خروج بغير ربانية الدرس والتدارس فإنما قيمة السلاح بضاربه.

***تلقيبه ببديع الزمان:**

أول من لقبه "بديع الزمان" أستاذه الملا فتح الله أفندي وذلك في قصة طريفة وقعت له معه حيث اختبر قوة حفظه وقال له: هل تستطيع أن تحفظ بضعة أسطر من كتاب مقامات الحريري بعد قراءتها مرتين.

تناول الكتاب وقرأ منه صفحة واحدة فإذا بها قد وقعت على التو بقلبه صورة كاملة غير منقوصة ثم تدفقت على مجرى لسانه مباشرة هنا قال له الملا: إن اجتماع الذكاء الخارق مع الحفظ الخارق في شخص واحد لهو من أندر الأمور إنك "بديع الزمان".

التربية الروحية عند بديع الزمان النورسي:

1- مواظبته على الأذكار والخلوات:لقد كان في مقدمة العوامل التي أكرمته بالصفاء الروحي وأيدته بالإلهام الصائب والفتوحات الربانية تلك الساعات الطويلة التي كان يأخذ نفسه فيها بالأذكار المأثورة والأوراد، وأيضا من أهم تلك العوامل خلواته الكثيرة والطويلة التي يمضيها في شواهق الجبال وأحيانا عل مقاعد الأشجار يحاسب فيها نفسه ويراقب ربه ويبحث عن مواطن الفتق من نفسه ومكامن الضعف في أمته.

حتى إنه لما عُيِّن عضوا بدار الحكمة الإسلامية كان لما ينهي عمله وينفض مجمع العلماء يخرج وحده قاصدا خلوته بتل يوشع أو بقمة شملجا مطلا على ضفاف البوسفور وبحر مرمرة.

إن هذه الخلوات كانت هي ملجؤه لما تختلط عليه الأمور ولا يدري الحق من الباطل وخاصة في المرحلة العصيبة التي كانت تمر بها عاصمة الخلافة الإسلامية.

ولقد كان من نتائج هذه العوامل سنوحات ربانية علوية يفيض بها قلبه وتعلو به في سُلَّم المقامات وترقى به إلى أعلى الدرجات؛ من هذه المقامات أن يصل السالك من جهاده إلى نكران الذات والفناء في المنعم جل جلاله والرقي إلى أعلى درجات الإحسان وهو عدم شعور العبد بإحسانه وذهوله عن أحواله ومقاماته.

يقول رحمه الله مبينا هذه الرتبة التي لا يتذوقها ولا يرقى إليها إلا من أخذت بمجامع نفسه نشوة العبودية لله:" قال لي أحد الأتقياء في قسطموني شاكيا: لقد ترديت وتقهقرت عن حالي السابق...إني فقدت ما كنت عليه من أحوال وأذواق وأنوار فقلت له: بل ترقيت واستعليت على الأذواق والكشوف التي تلاطف النفس وتذيقها ثمراتها الأخروية في الدنيا وتعطيها الشعور بالأنانية والغرور...وقد طرت إلى مقام أعلى وأسمى وذلك بنكران الذات وترك الأنانية والغرور وبعدم التحري عن الأذواق الفانية ...نعم إن من الإحسان الإلهي للعبد أن ينسيه إحسانه بفنائه عن نفسه التي لا حول لها ولا قوة ولا وجود إلا بالمحسن الأوحد وهو الله سبحانه".

ولقد كان من آثار هذه العوامل أيضا تنامي مشاعر الخشية من الله بين جوانحه وتعاظم الخوف في نفسه مما هو مقبل عليه بعد الموت، ولنتأمل ترجمة هذه الآثار في هذا الدعاء الواجف وهو يناجي به ربه جل وعلا يقول رحمه الله:" يا رب الرحيم ويا إلهي الكريم، قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراته في يدي إلا آثام مؤلمة مذلة ....وأنا بهذا الحمل الثقيل والقلب العليل والوجه الخجيل متقرب بكمال السرعة بلا انحراف وبلا اختيار كآبائي وأحبابي وأقاربي وأقراني إلى باب قبري، ... بيت الوحدة والانفراد في طريق أبد الآباد للفراق الأبدي من هذه الدار الفانية الهالكة باليقين ... فيا رب الرحيم ويا ربي الكريم أُراني عن قريب وقد

لبست أكفاني وركبت تابوتي وودعت أحبابي وتوجهت إلى باب قبري فأنادي في باب رحمتك: الأمان الأمان يا حنان يا منان نجني من خجالة العصيان".

تساءل معي: من أين تفجرت في قلبه هذه الأحاسيس العلوية المنصرفة بكليتها إلى الملإ الأعلى والمعرضة عن ملكوت الأرض وزخارف الدنيا؟ أمَا إن هذه الأحاسيس لا تنبثق إلا من قلب من أخذ نفسه بأوراد الصباح والمساء، وغذى فطرته الإيمانية بالكثير من ذكر الله ومراقبته، وهل كان هذا إلا ديدن الرعيل الأول من المسلمين وهل كان هذا في حياتهم إلا عملا بدون عنوان مثير ومسمى بدون اسم مصطنع؟

أما عن تنامي الخشية من الله بين جوانحه فلنتأمل في هذه الواقعة فقد نزل ضيفا على الوالي عمر باشا بمدينة بتليس وخصص له غرفة في الطابق العلوي من بيته وكان له ست بنات ثلاث منهن صغيرات وثلاث بالغات كبيرات، ومع أنه كان يعيش معهن في سكن واحد طوال سنتين إلا أنه لم يكن يميز بين الثلاث الكبيرات؛ وهو يومئذ الشاب الفتى إلى أن نزل أحد العلماء يوما ضيفا عليه فعرفهن في ظرف يومين فقط وميز بينهن واحدة واحدة فأخذت بديع الزمان الحيرة ولما سأله لماذا لا تنظر إليهن كان جوابه:" صون عزة العلم يمنعني من النظر الحرام".

إن النظر الحرام يسلب العالم سره فبحفظ عيناه من الحرام ارتقت روحه إلى ما فتح الله به عليه من أسرار الحفظ والإدراك لحقائق العلوم، وظلت ذاكرته تستحضر بقوة وحيوية ما شاهدته أو سمعته إلى آخر حياته.

2- الإخلاص: الإخلاص في العمل وابتغاء مرضات الله ذاك هو الكبريت الأحمر فمن منا لا ترفو نفسه إلى مطمع دنيوي ولو قلَّ أو خفي.مترجمنا حاز قصب السبق في التحلي بهذه الصفة فقال قولته الشهيرة:" يا سعيد كن صعيدا في نكران تام للذات وترك كلي للأنانية وتواضع مطلق كالتراب لئلا تعكر صفر رسائل النور وتقلل من تأثيرها في النفوس".

ولقد أتبع هذه المقولة بأفعاله حيث لما دخل إلى إسطنبول وأحسوا بخطر وجوده بينهم لما ينشره من الوعي بين الناس وخاصة أن القصر العثماني لم يبق منه إلا أطلال هزيلة تنتظر السقوط الأخير عرضوا عليه مرتبا بمقدار ثلاثين ليرة ذهبية شهريا مع مبلغ من التبرعات كان جوابه:" إنني لست متسول راتب وإن بلغ مقداره ألف ليرة فأنا لم آت إلى هنا إلا من أجل أمتي وليس من أجل نفسي، ثم إن ما تحاولون تقديمه لي ليس إلا رشوة للسكوت ...ولا قيمة لهذه النصيحة إلا بحسن تأثيرها ولا يحسن تأثيرها إلا عندما تكون مخلصة خالية من شوائب الطمع؛ وهذه لا تكون إلا عندما تكون دون مقابل وبعيدة عن المنافع الشخصية لذا فأنا معذور عندما أرفض هذا المرتب".

وكان لا يقبل الهدايا من الآخرين وإذا قبلها فإنما يكون بمقابل؛ ويقول رحمه الله عن الحكمة من ذلك:" عدم جعل رسائل النور – التي هي خدمة سامية خالصة للإيمان والآخرة – في آخر أيامي وسيلة لمغانم الدنيا

ودم جعلها ذريعة لجر المنافع الشخصية... فلأجل هذه الحكمة أعطيت لي هذه الحالة ... ورضيت بالعيش الكفاف وشدة الفقر والضنك، وذلك لئلا يفسد الإخلاص الحقيقي الذي هو القوة الحقيقية لرسائل النور ... وأشعر كذلك أن في هذا الأمر إشارة فيها بأن هذه الحاجة هي التي ستدفع أهل العلم في الأزمان الآتية إلى الانهماك بهموم العيش حتى يغلبوا على أمرهم".

***تمسكه بالسنةالشريفة:**

في الناس من يظن أن من شأن الذين يكثرون الاهتمام بأسباب التزكية النفسية وأحوال القلب ومقامات القرب من الله أن يتساهلوا في أمر التمسك بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم غير أن الواقع مخالف لهذا الظن؛ فما تتبعنا حال من سلكوا بصدق مسالك التزكية واهتموا بمراقبة أحوال القلب وسبل التقرب إلى الله إلا ورأيناهم من أكثر الناس تمسكا بالسنة ونبذا للبدعة، وارجع إن شئت إلى الرسالة القشيرية تجد الجامع المشترك في تراجم رجالها الحض على اتباع السنة ونبذالبدع ومحاربتها.

وبديع الزمان النورسي من أصحاب هذا الرعيل فنجده ينبه إلى ضرورة التمسك بأهداب السنة النبوية وعدم الخروج عليها. يقول رحمه الله في اللمعة الحادية عشر:" إن من يجعل اتباع السنة النبوية عادته فقد حول عاداته إلى عبادات ويمكن أن يجعل عمره كله مثمرا ومثابا عليه".

ولقد ظهر هذا الأمر جليا في حياته العملية حتى وهو في الحرب في الجبهة الروسية حيث كان جنود الأرمن يذبحون أطفال المسلمين وكان بعض جهلة المسلمين يقابلونهم بالمثل فيذبحون أبناءهم أيضا، ولما شارك في الحرب العالمية الأولى ضد الروس وقع في الأسر عدد كبير من أطفالهم فصرخ في جنوده أن يطلقوا سراحهم جميعا لأن قتل الأطفال حرام في ديننا، وبسبب هذه الحادثة تخلى جنود الأرمن عن عادتهم السيئة في ذبح أطفال المسلمين.

ولما وقع أسيرا ونقل إلى سيبيريا بلد الموت البطيء مرَّ على المعتقل نيكولا نيكولافيج خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس فهب كل المعتقلين وقوفا بين يديه تعبيرا عن الخضوع والامتثال إلى أن كان يوم بديع الزمان؛ فلما مرَّ لم يقف بين يديه ولما سئل عن السبب كان جوابه:" أنا عالم مسلم أحمل في قلبي الإيمان والذي يحمل الإيمان في قلبه أفضل ممن لا يحمله ولو أنني قمت لكنت قليل الاحترام لديني ولأهنت عقيدتي".

في هذه اللحظة تكلمت عينا الجنرال قبل أن تتكلم شفتاه " إنك ميت" وعقدت محكمة صورية لمحاكمته وحُكم عليه بالإعدام ولكن قضت حِكمة الله تعالى أن لا يُعدَم ويعتذر القائد العام لبديع الزمان، وينجو بأعجوبة من موت محقق. هنا اغرورقت عيون كثير من الأسرى بالدموع فرحا بنجاة بديع الزمان وفرحا بكرامة الإيمان وعزة الإسلام.

***أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:**

لم يكن بديع الزمان منزويا في محرابه بعيدا عن الناس وشؤونهم؛ بل كان يخالط الناس بالقدر الذي يحقق الهدف والمقصد من ذلك. لقد بدأ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سن مبكرة في سن السابعة عشر حيث كانت له مع مصطفى باشا رئيس عشيرة ميران والتي كانت ترزح تحت ظلم شديد وكانت مساكنها الصغيرة متجمعة بجزيرة ابن عمر اشتهر هذا الرجل بغروره وظلمه ومن يغضب عليه أو تبلغه وشاية فمصيره المحتوم القتل أو العذاب المهين.

كانت لبديع الزمان معه حادثة حيث أتاه إلى مجلسه ودعاه إلى التوبة والهداية والإقلاع عن الظلم، وجرت بينهما مساجلة انتهت بأن رجع مصطفى باشا إلى رشده وتاب إلى الله تعالى وشرع في أداء الصلاة.

وقد طرق سمعه يوما أن والي بتليس وعددا من الموظفين يشربون الخمر فثارت ثائرته وقال: " لن يرتكب هذا الفعل شخص يمثل الحكومة في مدينة مسلمة مثل بتليس! وذهب فورا إلى مجلسهم ووعظهم ونهاهم عن فعلتهم الشنيعة، ولما قيل له: إن كلامك هذا يوجب الإعدام كان جوابه:" لم يرد على خاطري الإعدام، بل كنت أحسب العقاب سجنا أو نفيا ... وعلى كل حال ما ضرَّ إن مت في سبيل دفع منكر واحد".

وكذا كان الأمر مع عمانوئيل كراصوا رئيس حاخامات اسطنبول والعضو البارز في المحفل الماسوني والنائب البرلماني عن سلانيك والذي كان له دور بارز في خلع السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله تعالى عن منصب الخلافة الإسلامية.

دعاه عمونائيل إلى اجتماع وحاول توظيفه في مشروعه الشيطاني الهادف إلى تقويض أركان الدولة العثمانية، استغل بديع الزمان النورسي هذا اللقاء وراح يشرح له مقاصد دعوته وأهدافها، وأن جيل القرآن ينبت الآن بفضل هذه الدعوة وأنهم خير للإنسانية ولا يبتغون وراء ذلك مغنما دنيويا وإنما مرضات الله وسعادة الناس باتباع منهج ربهم. هنا قطع عمونائيل الاجتماع قائلا:" لقد كاد هذا الرجل العجيب أن يزج بي في الإسلام بحديثه".

وبعد، فلقد كانت صلة بديع الزمان بالناس الذين يرشدهم ويربيهم عن طريق رسائله التي يكتبها إليهم فتنتشر فيما بينهم، أما هو فكانت تلقاه السجون سجنا إثر سجن لا يتأتى له – إلا نادرا – الجلوس إليهم والتحاور معهم، ومع ذلك فقد أثمرت جهوده وها نحن نرى اليوم ثمار تربيته الروحية يانعة متجددة على عرض المجتمع التركي وطوله يبدد ضياءه الساطع ما تراكم من ظلمات الجهالة والفسوق والإلحاد؛ وكأنه ضياء أشرق للتوِّ أو لكأنها تربية تتلقاها الآذان والألباب بالأمس القريب.

ما السر الكامن من وراء هذه الظاهرة الغريبة التي تتبدى في سطور ورسائل وكلمات مضى على توجيهها إلى الناس ما يناهز القرن من الزمن؟ السر يكمن في هذه الإشراقة الروحية التي كانت تتوهج بها حياة بديع الزمان وكان معينه متمثلا في ذلك الجهاد الخفي الذي كان يأخذ به نفسه مراقبة لله وذكرا دائما له والتجاء

إليه بالأسحار وملازمة للأوراد التي تصفي القلب في البكور والآصال، وإنه للجهاد القدسي الذي كان في صدر الإسلام مسمى لا اسم له ثم غدا اليوم اسما لا مسمى له.

الهوامش

1) انظر سيرة ذاتية لبديع الزمان النورسي ص 51.
2) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص61.
3) انظر المصدر السابق ص 67.
4) اللمعات لبديع الزمان النورسي ص178.
5) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص 76.
6) انظر آخر الفرسان لفريد الأنصاري ص221.
7) انظر آخر الفرسان لفريد الأنصاري ص 09.
8) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص 92.
9) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص 60.
10) انظرسيرة ذاتية للنورسي ص 144.
11) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص 149.
12) انظر من الفكر والقلب لسعيد رمضان البوطي ص 320.
13) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص71.
14) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص 75.
15) انظر سيرة ذاتية للنورسي ص 105.

قائمة المصادر والمراجع

* آخر الفرسان، فريد الأنصاري/ دار النيل للطباعة والنشر – تركيا. الطبعة الأولى/ 1427هـ - 2006م.

* سيرة ذاتية، بديع الزمان سعيد النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي/ دار النيل للطباعة والنشر – تركيا. الطبعة الأولى / 1429هـ - 2008م.

* من الفكر والقلب، د. محمد سعيد رمضان البوطي/ دار الفقيه للنشر والتوزيع – الإمارات العربية المتحدة. طبعة جديدة ومنقحة / 1429هـ - 2008م.

* اللمعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي / دار النيل للطباعة والنشر – تركيا. الطبعة الأولى / 1427 هـ - 2007م.